

المنظومة التربوية للجزائر المستعمرة

أ د / عبد الكريم بن أعراب

جامعة قسنطينة

المقدمة

يزداد الإهتمام بالتعليم كل يوم، سواء من ناحية الطلب الإجتماعي عليه أو من ناحية العرض. هذا الإهتمام المتعاظم ليس بالصدفة إنما هو نتيجة الدور الكبير للتعليم في التنمية الإنسانية والتنمية الاقتصادية. كل الدراسات الحديثة أثبتت الارتباط الوثيق بين التعليم والنمو.

إذا كانت الجزائر قد اهتمت بتعليم أبنائها منذ الإستقلال باعتماد سياسات واستراتيجيات جعلتها تحتل الصدارة بين الأمم التي تبذل جهودا كبيرة، وذلك من خلال الجهد النسبي (6% من الناتج المحلي الخام) أو الجهد المطلق (25% من ميزانية الدولة)، وجعلتها تحقق مؤشرات كمية في مجال الهياكل التربوية وتعداد التلاميذ والطلبة وكذلك المعلمين والأساتذة والإطارات الإدارية فإن الفضول العلمي يدفعنا لدراسة المنظومة التربوية للجزائر خلال الفترة الإستعمارية لنعرف كيف تعامل المستعمر مع تعليم أبناء الجزائر من جهة والتأكد من مزامعه من أنه جاء للجزائر ليلقن أبنائها الحضارة من جهة ثانية.

يدور موضوع الورقة المقدمة حول الدراسات الإقتصادية للتربية من خلال البحث عن المعلومات الكمية التي عليها تفيد القارئ وتعطيه صورة واضحة عن

هذه الحقبة التاريخية التي يجب علينا أن نهتم بها من جميع الجوانب حتى نستخلص النتائج ونستفيد من العبر ونتفادى مستقبلا الوقوع في نفس الأوضاع.

1- التعليم، من الكتب السماوية إلى المدرسة العمومية.

1-1- دور الديانات السماوية.

إن الباحث في أصول التعليم وموارده الأولي يؤدي به للغوص في تاريخ البشرية. نحن المسلمون أنعم الله علينا بكتاب عظيم فيم أخبار الماضي والحاضر والميتقبل. فيه أخبار الدنيا وأخبار الآخرة، وهي نعمة من أعظم النعم. التمعن في هذا الكتب يتبين أن الله هو أول من علم "علم آدم الأسماء كلها" وكذلك اعتراف الملائكة "سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا". هذه المعاني الكريمة وحدها تبين لنا نعمة العلم التي أنعم الله بها علينا. ثم بعد ذلك نخبرنا كيف خص الله الأنبياء والرسل بكلمات وآيات.

1-2- القراءة والكتابة أمر من الله.

إن القراءة والتلقين والكتابة والتدوين تعود بالأصل إلى الأمر الذي أمر به الله في المرحلة الأولى الأنبياء والرسل ثم بعد ذلك البشرية كلها. يكفي قراءة محتوى الكتب السماوية للتأكد من أن القراءة والكتابة جاءت بأسلوب الأمر. ولم تصغ هكذا فقط بل هي مسؤولية كل إنسان عاقل. يحز قلبي كثيرا لما نراه اليوم من تقاعس لدى المسلمين تجاه القراءة والكتابة بل وتكاد تنعدم لدى المثقفين الذين حملوا رسالة العلم. في كثير من الأحيان نلمس لدى الأساتذة والمعلمين الميل إلى الجري وراء لقمة العيش بدل الإمتثال للأمر الرباني الخاص بالقراءة والكتابة

بالرغم مما فيهما من أسباب للعيش الكريم. العزوف عن القراءة والكتابة هو سبب تأخرنا وسبب كل المشاكل التي تعيشها شعوبنا.

1-3- التربية، مجموعة قيم عالمية أقرتها الديانات السماوية.

بالإضافة للتعليم هناك ارتباط وثيق بين العلم والتربية. هذه العلاقة تكمن أساسا في القيم العالية التي أكدتها كل الديانات السماوية. من دون هذه القيم لا يمكن أن نتصور استقرار البشرية وتطورها.

لكن القيم لا يمكن تمريرها عبر مختلف الأجيال إلا بالقراءة والكتابة. القراءة تمكننا من الإطلاع وبعدها يأتي التمعن والإدراك. أما الكتابة فبفضلها يمكن تدوين المعلومات وتخزينها ونقلها من فضاء إلى آخر. إذا كان الفضل للرسول في نقل القيم إلى الإنسانية فإن نشر القيم تم عن طريق الكتابة والقراءة عبر مختلف الأحقاب التاريخية.

1-4- الإسلام تنوير لمراحل إنسانية متعاقبة.

أول مصطلح "اقرأ" أمر إلهي موجه لني أمي. هنا أروع رمزية يمكن للبشرية أن تفتخر بها. إن إجابة محمد لمناديه بقوله ما أنا بقارئ تلزمنا أن نتمتع كثيرا في هذا الأمر الذي سيتبين بعد ذلك عندما يأتي الرد واضحا جليا "اقرأ باسم ربك الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم". ثم بعد ذلك يبين الله لنبيه عظمة الرسالة التي يحملها ويحدد مقدار المسؤولية الملقاة على عاتقه بقوله "إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً".

لو تمنعنا جلياً في هذه المعاني وأدركنا حقيقتها لألزمنا أنفسنا القراءة بدون توقف. إن المسؤولية الملقاة على عاتق المسلمين المثقفين في مختلف الفضاءات تحتم عليهم إعادة النظر في هذه المعاني ووجوب الالتزام بالأمر الإلهي الخاص بالقراءة. إن القلب يدمي ويتوجع عندما نقرأ لليهود وهم يحكمون على العرب بأنهم لا يقرأون وإذا قرأوا لا يفهمون.

1-5- تعليم القرآن وضع أسس المدرسة العمومية المنصفة للجميع.

ظهور الإسلام ومحاربه للجهل والامية واجتهاد الأوائل في وضع الأسس للتعليم للجميع وهذا رسولنا يجعل من طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ويحث الناس على ذلك. قراءة القرآن تم التأكيد عليها في مواضع كثيرة. ظهور الأشكال الأولى لتعلم القرآن ارتكزت على رواسي هي اليوم شعارات المنظمات الدولية كاليونسكو وغيرها. أولها الإنصاف بين الجنسين، نلاحظ أن الإسلام لم يفرق بين الذكر والأنثى في الحق في التعلم. ثانيها إجبارية التعلم والإسلام قد جعل من التعلم فرضاً. أما ثالثها تكمن في التعليم العمومي بحيث تتكفل المجموعة بضمانه والسهل عليه وهو ما نلمسه من دور المسجد في البداية ثم انتشار الكتاتيب. ولم أقرأ يوماً عن استثناء فقير من التعلم في المنظومة الإسلامية عبر مختلف العصور.

هنا يكمن دور الإسلام كتنويع لمختلف الديانات وتعاليمها وألم بكل فضائلها وقيمها. كما وضع اللبنة الأولى للمدرسة العمومية المنصفة و الملزمة للجميع. العجز لا يكمن في الإسلام ولا في القرآن إنما يكمن في المسلمين الذين تخلوا عما جاء في كتاب الله فأصابهم ما أصابهم من جهل وأمية وتخلف وتأخر. أشير

هنا إلى أن العالم الإسلامي يسجل أكبر مؤشرات الأمية في العالم (بن أعراب، 2005).

6-1- الفتوحات الإسلامية والتعليم

لم يكتف الإسلام بوضع أسس متينة للتعليم بل قام في المرحلة الثانية بنشر التعليم في المعمورة. أينما يحل الإسلام يبنى المسجد لبدء تعليم القرآن. الفاتحون، لا تهمهم خيرات البلدان المفتوحة بقدر ما تهمهم أحلام المنارات البيضاء شاهقة في السماء وحلقات طلاب العلم بلغة عربية راقية. كما أن حسن التدين يمر حتما عبر حسن التعلم. بالإضافة إلى ثواب القراءة والكتابة الذي هو محفز للتعلم ونشر العلم. كما أن مكانة العالم في الديانة الإسلامية جعلت من طلب العلم حلم كل مسلم.

لدينا الآن لحظة عن فضل التعلم ودور الديانات السماوية في تعيمه ووجوبه ونشره. نحاول أن نقدم نبذة وجيزة عن التعليم في الجزائر.

2- التعليم في الجزائر انتشر مع دخول الإسلام

قراءة تاريخ الجزائر تنبئنا عن دور الإسلام في انتشار التعليم من خلال المساجد في التجمعات السكانية الكبرى والكتاتيب في المداشر. لقد سبق أن قلنا أن الفاتحين يقومون دائما بتحديد الفضاء الخاص بالمسجد الذي يأخذ في البداية شكل رقعة من الأرض معلمة تقام فيها الصلاة يبنى المسجد فيها بعد ذلك. يكفي أن نستدل بالآثار الباقية للعواصم الإسلامية لنكتشف عدد المساجد وفي بعض الأحيان نلاحظ أن المسجد والمسجد تفصلهما أمتار معدودة.

- ازدهار التعليم في جعل من تلمسان وقسنطينة والجزائر وتيهرت وبجاية ومسيلة وبسكرة وغيرها من المناطق مراكز إشعاع ذات بعد عالمي كانت تدرس فيها شتى العلوم ويأتيها طلبة العلم من كل مكان.

لكن الحروب غالبا ما تساهم في تدهور التعليم نتيجة عدم الاستقرار والصعوبات الناجمة عن الصراعات. كما أن السيطرة على الشعوب تمر حتما عبر تجهيلها بالإضافة إلى الحاجة لليد العاملة من طرف الغازين الذي غالبا ما يكرس الأمية والتجهيل وهذا ما سنبينه في المبحث القادم.

3- المنظومة التربوية للجزائر المستعمرة

وقوع الجزائر تحت السيطرة الفرنسية لم يكن مجرد معركة خسرها الجزائريون بل كان يمثل تجسيدا لطموحات فرنسا لتوسيع إمبراطوريتها والسيطرة على خيرات الشعوب مستندة إلى مبررات واهية مرفوضة. مشروع فرنسا جعل الجزائر إمتدادا طبيعيا لها. لكي تتم السيطرة كاملة قام المستعمر بتهديم البنى الاجتماعية والقضاء على القبائل والعروش والعائلات الكبرى واستبدالها بالدوار، القربي، وتمهين الرعاة (Addi, 1985) هذا نظرا للحاجة لليد العاملة وتسخيرها.

هذا المشروع يتناهى تماما مع التعاليم الإسلامية. الإسلام إذن يشكل خطرا على فرنسا التي عملت على منع تعليم القرآن والعربية و قامت بحرق الكتاتيب وهو ما يجسد مشروع المسخ الثقافي الكبير الذي أرادت فرنسا تطبيقه في الجزائر. مارست فرنسا التفرقة بين سكان الجزائر (مسلمون - أوروبيون)

واعتبار المسلمين أقل ذكاء، بالإضافة إلى الضغوطات المتتالية على الطلبة المسلمين (Abbas, 1983).

لكي تتضح لنا أكثر وضعية التعليم خلال العهد الإستعماري ندرج البيانات المالية والخاصة بالتعليم الابتدائي والثانوي. وهو ما يعرض في الجدول رقم 1 ورقم 2.

الجدول 1 - وضعية التعليم الابتدائي بين 1901 و 1960

العام	المسلمون	النسبة %	الأوروبيون	النسبة %	المجموع	النسبة %
1901	24 975	17.77	115 576	82.23	140551	100
1945	108 663	45.05	132 543	54.95	241206	100
1960	714 774	85.08	125 305	14.92	840079	100

المصدر: من إعداد المؤلف على ضوء معلومات Brahim

نلاحظ أن عدد المتدربين الجزائريين ضئيل في بداية القرن حيث يبدو أن التعليم كان بالأساس موجه لأبناء المحتلين حتى بعد الحرب العالمية الثانية واشتداد المقاومة المسلحة الجزائرية مما أدى بديغول إلى أن يعلن عن مخطط قسنطينة عام 1958 قصد احتواء الثورة التحريرية وهو ما انعكس إيجابا على تعليم أبناء

الجزائريين. لكن إذا أخذنا في الحسبان نسبة السكان فإن التعليم كان ضئيلا ونسبة الأمية بلغت 85 % عام 1962.

الجدول 2 - وضعية التعليم الثانوي

نسبة الجزائريين	المجموع	الأوروبيون	المسلمون	العام
20.13%	48728	38918	9810	1954
37.30%	75714	47470	28244	1961

المصدر: من إعداد المؤلف على ضوء معلومات Brahim

لاشك أن أحسن دليل على أن التعليم في الجزائر المستعمرة لم يكن منتشرًا في أوساط الأهالي بيانات الجدول رقم 2 تؤكد ذلك. مع مطلع الثورة الجزائرية لم يكن في الثانويات سوى 9810 تلميذ مسلم وهو ما يمثل 20.13 % من مجموع التلاميذ.

التعليم الجامعي كان بالأساس حكرا على المعمرين ولم يحظ سوى 2000 طالب أحصوا عام 1962 بهذا المستوى. نذكر أنه عام 1962 لم تكن في الجزائر سوى جامعة الجزائر بالعاصمة.

المنظومة التربوية للجزائر المستعمرة تميزت بسمات كثيرة مقتتها المجتمع الدولي. هاته السمات يمكن استخلاصها فيما يلي:

1- هي منظومة تفرقة. حيث كان يفرق بين المسلمين وغير المسلمين.

2- هي منظومة غير منصفة حيث لم يكن التعليم متوفر للجميع.

3- هي منظومة ظالمة. حيث فرض التدريس بلغة غير لغة الأهالي.

4- هي منظومة عنصرية. حيث كان يعتقد أن المسلمين أقل ذكاء من الأوروبيين.

هذه السمات وحدها دليل قاطع على أن الفرنسيين لم يحلوا في الجزائر لنشر الحضارة كما كانت ادعاءاتهم، لكن جاءوا لينشروا الظلم بين الناس وهنا جوهر الفرق بين المسلمين الفاتحين الذين ينشرون العلم والقيم الفاضلة ويساؤون بين الناس والغزاة الذين يقومون بعكس ذلك نتيجة الكراهية والبغض والحقد والعنصرية. على المسلمين أن يعودوا لقيمهم السامية ويمثلوا لأمر الله "اقرأ".

الخلاصة

من خلال المعطيات التي تناولناها في هذه الورقة يمكن أن نستخلص مدى أهمية القراءة والكتابة. كما استنتجنا أن الديانات السماوية أكدت كلها على ذلك. القرآن الكريم توج واحتوى مجموع القيم الواردة في الكتب الأخرى وكان أول مصطلح نزل هو مصطلح "اقرأ".

بينما أن الإسلام كان له دور كبير في تعميم القراءة والكتابة ونشرها كما حقق الإنصاف التام أمام التعليم سواء أكان ذلك بالنسبة للجنس أو بالنسبة للوضع الإقتصادي والاجتماعي للمتعلم. الفتوحات الإسلامية ساهمت في نشر التعليم في مختلف أنحاء المعمورة.

التعليم في الجزائر كان منتشرًا ومستويات الأمية متدنية لكن سقوط الجزائر في أيدي الفرنسيين عام 1830 كسر البنى الاجتماعية من جهة وحارب تعليم القرآن واللغة العربية لكونهما يشكلان خطراً على المشروع الثقافي التوسعي الفرنسي.

تجهيل أفراد الشعب كان بهدف السيطرة على الجزائر من جهة والتمتع بيد عاملة رخيصة من جهة أخرى. تكفي الإشارة هنا إلى آلاف المهاجرين الأميين من الجزائريين الذين هاجروا إلى فرنسا بحثاً عن لقمة العيش والذين كانوا يقومون بكل الأعمال الشاقة بأجور متدنية وأوضاع إجتماعية معقدة. منطقة نانتر لا تزال شاهدة على البؤس والشقاء الذي عاشه المهاجرون.

التأثير القوي للثورة الجزائرية على القرار الفرنسي أدى إلى محاولات تدارك الوضع من خلال مخطط قسنطينة لكن الأوان كان قد فات وبوادر الإستقلال كانت جليلة.

المراجع:

- 1- عبد الكريم بن أعراب، 2003، العولة والمنظومات التربوية للبلدان الإسلامية، الملتقى الدولي، المجلس الإسلامي الأعلى، رئاسة الجمهورية، الجزائر.
- 2- عبد الكريم بن أعراب، 2005، الأمية في الجزائر والعالم العربي، المجلس الشعبي الوطني، الجزائر.

- 1-Abdelkrim BENARAB. 2005, Le financement de l'éducation pour l'alphabétisation dans le monde arabe, réunion du G8 et 26 pays arabes et moyent-orient, ministère des affaires étrangères, Alger.
- 2- Benarab, A. 2003, PME/PMI-Banques quelles perspectives ? Séminaire international CREAD.
- 3- Brahimi, A, 1992, L'économie algérienne, OPU, Algérie.
- 4- Ecrément, M, 1986, Indépendance politique et libération économique, OPU, Algérie, PUG, Grenoble.
- 5- Benaouda, H, 1983, Système productif algérien et indépendance nationale, OPU, Algérie.
- 6- Henni, A, 1982, Etat, surplus et société en Algérie avant 1830.ENAL, Alger.
- 7- Abbas, Ferhat, 1983, Le jeune algérien. France.